

الأجواء الموبوءة ونصرة المعرفة، ما الحل؟

هل يجوز كتمان العلم؟ وإذا جاز؛ أي علم يجوز كتمانها؟ أم؛ لابد من قول (الحق)؛ لا تخشى لومة لائم؟ المنتصرون لجواز كتمان الحق والعلم، لهم أدلتهم؛ والمنتصرون لقول الحق مهما كلف الأمر لهم أدلتهم. سنذكر الأدلة ثم نرجح ما نراه. فمن أدلة المنتصرين للكتمان:

1- قوله تعالى { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) } (غافر) ولم يذمه الله على هذا.

2- ومنها؛ قوله تعالى :

{ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا اللَّهُ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْبَصِيرُ (٢٨) } (آل عمران)

فهؤلاء يرون أنه يجوز لك اتقاء شر أهل الشر، أو اتقاء ظلم الظالمين؛ وبعضهم توسع فقال: إذا رأى في ذلك مصلحة؛ واستدلوا بإجازة النبي لجواسيسه في الحروب وغيرها، كانوا يكتمون، بل ربما قالوا السوء في حق النبي؛ وقصة عماري إكراههم له؛ وقوله له (إن عادوا فعد)؛ هذه مجمل أدلة المجيزين.

وقد توسع الشيعة في هذا الأمر (التقية)؛ وبالغ بعضهم فيها جداً؛ بينما بعض الشيعة بالغ في (ذم التقية)؛ حتى أصبح يلعن ويبرأ ممن يتوسع فيها.

و (التقية) يطبقها أهل السنة أيضاً؛ ولكنهم يستنكفون من تسميتها (تقية)؛ لأن الشيعة سبقوهم إلى الاسم؛ لكن؛ الواقع (واقع التقية) موجود في الجميع؛ وبعض أهل السنة يصرح بها..

قال الذهبي في ترجمة سعدويه (أجاب في المحنة تقية)؛ وقال في ترجمة أبي نصر التمار (أجاب تقية وخوفاً من النكال)؛ وقال الذهبي رداً على الإمام أحمد بن حنبل - الذي نهى عن كتابة الحديث عن يحيى بن معين وابن المديني والتمار وغيرهم - : (هذا أمر ضيق، ولا حرج على من أجاب في المحنة، بل؛ ولا على من أكره على صريح الكفر - عملاً بالآية -.. وكان ابن معين من أئمة السنة؛ فخاف من سطوة الدولة وأجاب تقية).

وقال في ترجمة سعيد بن جبير: قال سليمان التيمي: (كَانَ الشَّعْبِيُّ يَرَى التَّقِيَّةَ، وَكَانَ ابْنُ جُبَيْرٍ لَا يَرَى التَّقِيَّةَ).

وقال عن الشيعة في موقفهم من ثناء الباقر على الشيخين: (وَيَحْمِلُونَ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ عَلَى التَّقِيَّةِ).

ونقل الذهبي أقوالاً عن الإمام أحمد في رفضه (التقية) في قضية خلق القرآن؛ ومن حق الإمام أحمد أن نذكر حجته في ذلك - وستأتي مع أدلة المانعين - وكذلك ابن تيمية؛ كان يرى جواز الكفر باللسان عند الإكراه؛ فقال في الاستقامة (2/ 319) فأباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه..)

وقال ابن تيمية أيضاً (بيان تلبيس الجهمية (٣٨٦/ ٥)) : (فأما من استعمل التقية مع غير كتاب الله ورسوله وأهل الإيمان فليس هو هذا (المنافق)). بل أثبت ابن تيمية التقية من أيام الذر؛ فقال (درء تعارض العقل والنقل ٨ (423/ ٤) ثم أخذ منهم الميثاق فقال: {ألست بربكم قالوا بلى} فأطاعه طائفة طائعين وطائفة كارهين، على وجه التقية)؛ اهـ

وهذا تعسف ومبالغة من ابن تيمية، فما الذي أدراه أن بعضهم أجاب تقية؟؟

وابن تيمية متناقض في موضوع التقية - كعادته - فمرة يثبتها في عالم الذر؛ حيث لا يعلم؛ ومرة يجعلها (شعار النفاق) إذا ذم الشيعة؛ ومرة يجعلها جائزة!

إذاً؛ فالكتمان يراه بعضهم عند الخوف على النفس من سطوة دولة - كمؤمن آل فرعون - أو سطوة غوغاء أو لعمق فكرة لا تبلغها عقول العامة.. الخ؛ وسواء قال (الكاتم والمتقي) أن هذه (تقية) أو لم يقلها؛ فاللفظ غير مهم، إنما المهم هو الواقع؛ في كونه أنه يكتم ما يعلم، فهل هذا جائز أم لا؟

وأما أدلة القائلين بوجوب البينان فلهم أدلتهم:

1- منها قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) } (البقرة)

وعيد شديد! ولكن؛ تستطيع أن تقول إن هذا خصصه الله بما بيّنه في القرآن؛ وليس بما تعتقد به من أحاديث أو فتاوى؛ إنما قال الله ذلك

في حق ما أنزله في الكتاب؛ فقلوه تعالى (ما أنزلنا البينات والهدى)؛ وليس المشتبه؛ و(من بعد ما بيناه للناس في الكتاب)؛ وليس خارجه.. هذه كلها قيود، وليس مطلق الأفكار والآراء؛ ولذلك؛ لا ينكر أحد - إلا مكابر أو كاذب - أنه لا يستطيع أن يقول كل شيء في السياسة مثلاً؛ ومن رحمة الله أن هذا ليس مما أنزله الله في الكتاب. والذين يزايرون على الناس ويحرضونهم على نقد السلطات، أغلب هؤلاء ينافقون، فهم لا يريدون العلم، وإنما الاستعداد غالباً، فالنفاق فيهم؛ لا فيك.

نعم؛ كتمان البينات - المحكمات - التي أنزلها الله أمر بالغ الخطورة، ومع ذلك؛ قد لا يستطيع الإنسان بيان ما في الكتاب من تلك البينات في بعض الظروف؛ وكان المتشددون في ذم التقية؛ كالإمام أحمد رحمه الله؛ يتشدد في موضوع فرعي - كخلق القرآن من عدمه - ولكنه لا ينكر على المتوكل جرائمه ومظالمه؛ والأمور التي ارتكبتها المتوكل - وقد سبق أن كتبنا في ذلك مقالاً مطولاً - هي تخالف المحكمات مما أنزله الله، ولكن؛ رأوا التقية هنا؛ ولم يروها هناك!

[لمطالعة "المتوكل ناصر السنة - الجزء الأول؟! "على هذا الرابط"»](#)

وهذا الكتمان لصريح ما أنزل الله من بينات الكتاب، واشتراء بهذا الكتمان ثمناً قليلاً؛ قد ذمه الله بما لا مزيد عليه، فقال في سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (١٧٤)

فهذا وعيد شديد في حق هؤلاء الذين (يكتمون)؛ (ويشترون به)؛ أي بهذا الكتمان؛ (ثمناً قليلاً)؛ (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار)! نعوذ بالله.

وكثير من الذين يحرضونك على التهلكة ويظهرون أنفسهم بأنهم شجعان! يكونون من هؤلاء الذين (يكتمون) ويشترون بالكتمان (ثمناً قليلاً)؛ ثم يحرضونك!

والثمن القليل ليس بالضرورة أن يأتي من سلطة؛ قد يأتي من مذهب أو حزب أو طائفة أو مكانة أو علو في الأرض... الخ.. هم أول الكاتمين عند التحقيق.

والكاتمون مذمومون في كتاب الله أكثر من الذين يتقون شرهم؛ والنفاق بهم أصدق وإلهم أسبق؛ ولولم يكتموا لكانوا من أهل العقل والإنصاف والصدق. وهذه الآية (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) تذكرني بهم.

{وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [٨٩] {النساء}

وهم ليسوا كفاراً - لا نكفرهم - وإنما شبهت السلوك بالسلوك؛ يحسدونك على العقل.. يريدونك مثلهم؛ أهوج متعصباً دموياً، وإلا فأنت منافق!

نفاقهم القديم قد أصبح عندهم إيماناً؛ يحرضهم على اتهام من لم يشاركهم هذا النفاق بالنفاق!

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يتهم (عبد الله بن مسعود بالنفاق)؛ و(ابن الزبير) بالنفاق؛ و(سعيد بن جبير بالنفاق).. نفاق الحجاج أصبح عنده إيماناً!

النفاق مذموم عند الجميع، من منافقين ومخلصين؛ مثلما الكذب مذموم من الكاذبين والصادقين؛ والظلم مذموم من الظالمين والعادلين؛ فاعرف المعنى أولاً.

الشیطان؛ من بالغ مكره؛ أنه قد يسمي نفاقه إخلاصاً؛ وكفره إيماناً؛ وتقيته القديمة شجاعة مستقرة؛ فاحذروه، فهو يريد أن يضلنا ضلالاً بعيداً.

ومن الآيات في ذم الكتمان:

{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [٤٢] {البقرة}

هنا تلبيس!

وكتمان المسؤولية عن القتل:

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [٧٢] {البقرة: ١٧٢}

بنو إسرائيل ذمهم الله بالتدافع في أمر قتل واحد؛ يا ترى؛ كم يرتكب المسلمون من ضحايا ويتدارعون فيهم؟

القرآن مليء بالعبر؛ والكاتمون نفسية واحدة؛ كتمان الشهادة أيضاً؛ من أبلغ الظلم:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: ١٤٠]

كتمان الشهادة دليل على فساد الضمير وخبث القلب

{وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة: ٢٨٣]

والآية في كتمان الشهادة في الأمور المالية: ربما في الدينار والدينارين؛ فكيف بما هو أعظم من ذلك؟

والمسلمون كما ترون!

ويقولون "نحن خير أمة!"

ومن الآيات في ذم الكتمان:

{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [آل عمران: ١٦٧]

ومنها:

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}

فما ذا فعلوا؟

فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧]

اشتروا به = أي بالكتمان.

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ} (١٨٧))

[آل عمران]

وليس كل من يجهر ويتفاخر يكون صادقاً:

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} [الأنبياء: ١١٠]

والخلاصة:

أن كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى لا يجوز، وهو محرم بلا شك؛ ولكن: كتمان غير ذلك؛ من الآراء والاجتهادات؛ مما يسوغ ويجوز. وكل من يزيد عليك فيما لا يلزم بيانه؛ تجده من الكاتمين فيما يلزم بيانه؛ إنها تهويشة الشيطان ليزكي أوليائه بالشبهات ويشغلك عن المحكمات.

بقيت حجة الغمام أحمد في ترك التقية؛ وهل كان يترك التقية فعلاً؟

أما حجته؛ فحديث خباب بن الأرت (إن من كان قبلكم كان أحدهم ينشر بالمنشار لا يصده ذلك عن دينه).

وهذه حجة قوية في موضوع الدين، صلب الدين، وليس في فروع العقائد والاجتهادات في التاريخ والسياسة وغيرها. ولكن: نجد الإمام أحمد - كما قلنا - لم يذم مظالم المتوكل؛ ولا مظالم أهل الحديث؛ وكان - أحياناً - يأمر بالكتمان؛ بينما؛ أجهد نفسه في موضوع فرعي ظني! وهنا مشكلة الفقيه؛ أنه قد يكتم الأمر الأكثر أهمية؛ كبغي البغاة - الذي أتى في النصوص - ويجهد نفسه في موضوع من فروع والإزامات ليس فيها نص.

والحديث رواه البخاري وأحمد وغيرهم من طريق قيس بن أبي حازم الذي فارق علياً بسبب تصريحه بواقعة أهل الشام (انفروا إلى بقية الأحزاب).

تناقض.

أحاول أن أجد فقهماً يثبت على ما يرويه فلا أكاد أجداً! والأسباب كثيرة؛ فها هو قيس بن أبي حازم يروي في ذم التقية؛ وعندما سمع الحقيقة لم يحتملها! فما يدريني عندما يسألني السائل (ما رأيك في كذا وكذا)؛ ما الذي يضمن لي أنه سيناقشني علمياً ليقنعني أو أقنعه؟ غالباً؛ سيشتنع ويستعدي ويحرض فقط؛ وكان قيس بن أبي حازم (عثمانياً)؛ أي فيه نصب عند أهل الحديث، وشهد الجمل مع عائشة، ولكنه لم يحتمل ذم أهل صفين على لسان من هو أعلم بهم منه.

لكن؛ لم يستشكل حديث عمرو بن العاص في ذم آل أبي طالب (ليسوا لي بأولياء)؛ وقد رواه عنه ، ورواه البخاري من طريقه، فلماذا التناقض؟

أعني؛ أن استشكل قيس بن أبي حازم لقول الإمام علي (انفروا إلى بقية الأحزاب)؛ مع قبوله حديث عمرو بن العاص في ذم آل أبي طالب؛ تناقض.

أنه النصب.

وروايته حديث خباب لا نرده، فقيس - رغم نصبه اليسير - ثقة؛ إلا أن اعتراضنا على تأثره من ذم علي لأهل الشام دون ذم عمرو بن العاص لأهل البيت.

وعلى نهج قيس في التضايق من اليسير وقبول العظيم، سرى في تلامذته؛ كإسماعيل بن أبي خالد وطبقته؛ ثم طبقة شيوخ أحمد؛ ثم طبقة أحمد...

هو منهج سائر.

الأجواء الموبوءة ليست مناسبة لبيان العلم؛ وإنما؛ لبيان التناقض وإدخال الغوغاء في حيرة؛ حتى يفكروا ثم يتعلموا؛ ليسوا جاهزين للمعلومات الكبيرة. ولذلك؛ قال الإمام علي: (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله)؟ إلى هذا الحد استعداد العامة خطير! فلابد من تدويخهم قبل.